جمال بغداد بالرشيد والبرامكة

نقلاً عن كتاب حضارة الاسلام في دار السلام تأليف جميل افندي نخله مدور

المقتطف * هذا كتابٌ بليغ العبارة رقيق الالفاظ طليُّ البحث جليل الفوائد ألَّفه حضرة الكاتب البليغ جميل افندي نخله مدوَّر من كتب اشهر المؤلفين واصحهم روايةً كما ترى في حواشيه ووَصَف فيه تمدُّن الاسلام ايام بني العبَّاس وما ينطوي تحته من المدن والمباني والعوائد والاخلاق والعلوم والصنائع والجاه والترف وما شاكل واجاد في وصف ذلك غاية الاجادة حتى يخيَّل للطالع انهُ ساكن اهل تلك الايام وعاشرهم . والكتاب المذكور يُطبع الآن في مطبعة المقتطف طبعًا متقنًا بحرف كبير واضح كحرف المتن تسهيلاً للمطالعة قال المؤلف بلسان راويته :

ولمَّا تجوَّلتُ في المدينة وجدتها على اعظم ممَّا كنتُ اعهدها من اتساع العمارة. فما كفى اهلها الموسرين ما رقعوا في مدينة المنصور من المباني المشرقة حتى انهم توسعوا الى سكنى الجانب الشرقي المعروف بالرصافة[1] فبنوا فيهِ القصور الرفيعة والمنازل الرحبة المزخرفة وغرسوا في جناتهم الاشجار والرياحين التي يجري من تحتها الماء واتخذوا لهم الاسواق والمرافق والحمَّامات والجوامع وتوجَّهت عناية البرامكة الى اقامة المكاتب فيها والحلقات ومنازل الجند ومأوى المرضى ومجالس القضاة وغُرَف الشرطة وغير ذلك حتى اصبحت الزوراء بجانبها كأنَّها البلد العتيق تجتمع محاسنهُ في جزءٍ من محاسن المدينة التي أُحدثت في جوارهِ

ولقد أُكبرتُ من الزوراء بلوغ العمران فيها بما رأيتُ من ازدحام الناس فيها وتموُّجهم كاللجر في ارجائها. يقال ان عددهم يزيد عن الفي الف وخمسمئة الف[2] وهذا جمعٌ لم يكن مثلهُ ولا قدر نصفهِ في مدينة من العالم قط فانما يدلُّ اجتماع الناس الى هذا القدر العظيم على أن ليس في المدن أيمن ولا أيسر[3] من

(١) ابن الاثير ٦ * ١٥ وخلكان ٢ * ٢٤٢ ونقوم ٣٠٣ (٢) اتليدي (٣) ابن الاثير ٦ * ٩٦ وابو الفداء ٢ * ١٩

الموضع الذي يتكوَّفون فيه تكوُّف الرمال . ثم أكثرتُ بلوغ النعيم من أهلها بما رأيتُ من توفُّر ارباب الغايات عندهم من الفنون[1] التي لا تقتصر الحاجة منها على ضرورة العمران وانما تتوسَّع المنفعة من صناعتها ومصنوعاتها الى مطالب التَرَف الذي يقع في الامم عند استخال ملكهم فصارت بغداد بيضة المُلك[2] ومعدن الظرائف[3] وزينة العالم بما نجد في اهلها من اتساع الحضارة عندهم وما نرى على مبانيها من الإشراق[4] الذي تنزَّه عن المثل فكأنّي بها قد محَت ذكر بابل في الحسن المشرق والجمال المونق

ولقد يتعذَّر عليَّ بهذا القلم الذي لا مادَّة فيه ان اصف مفاخر المدينة التي أقل ما تصيبهُ من الشرف انها تزهو ببهاء السلطان وتضمّ اليها عيون الاعيان الذين اذا لقي السائر منهم جماعةً في الطريق لم يفطن لهم من حيث الكثرة مع ان اقلّهم في الثروة والجاه يتعذَّر على اكبر المدن ان تلقى سكناهُ وتسع جندهُ وحاشيتهُ[5] والطامعين اليه من كافة الوجوه . وهذا دليلٌ على عظمة هذه المدينة وبلوغ العمران منها فلقد يشي اهل النعمة فيها بالغلمان[6] والحاشية الى عَدَد يتوهمهُ السامع بعيدًا عن الصدق[7] فشاهدت في محلَّة العتابيَّة[8] اميرًا قد ركب في مئة فارس وأحدق به الغلمان حتى ملأوا الطريق وسدُّوا السبيل على الناس وكلهم في ابهى زيّ واجمل لباس وشاهدت في مشرع القصب على دجلة[9] فتًى من اولاد النعمة قد سار بموكبٍ عظيم[10] من الخيل والرِّجْل كأنّي به قيصر على

(١) ياقوت ١ * ٦٨٥ (٢) ابن خلكان ١ * ٧٢٨ (٣) القزويني (٤) النفح بن خاقان ٢٦ (٥) العقد ٣ * ٤٢٢ (٦) اغاني ٥ * ٨٤ و٤ * ١٠٤ والعقد (٧) ابن الاثير ٥ * ١٤١ و ٢٢١ (٨) ابن خلكان ١ * ٧٤١ (٩) ابن خلكان ١ * ٧٩ (١٠) المستطرف ١ * ٦٥

مركبهِ او كسرى في جلال موكبهِ وكنت أُشاهد كثيرًا من الامراء الذين اذا ركبوا بموالبهم واهل بيوتهم ظننت ان الجند يزحف في اسواق المدينة لشدة سوادهم

وانما كان مصدر هذا الترف من دور الرشيد حين صارت اليهِ الخلافة وهو الذي أَلبس الدنيا جمالاً بملكهِ لم يسمع عن الملوك قط من كان أَسمح منهُ ببذل المال[1] لانهُ بلغ من الاسراف[2] الى ما لم يبلغهُ الاكاسرة ولا القياصرة قبلهُ في تبذيرهم المفرط[3] فهو ينفق على طعامهِ في كل يوم عشرة آلاف درهم[4] وربما اتخذ الطباخون لهُ اكثر من ثلاثين لونًا من الطعام[5] اخبرني أَبو يوسف انهُ لما بنى بزبيدة بنت جعفر اتخذ وليمةً لم يُتخذ مثلها في الاسلام[6] وجعل الهبات فيها على الناس غير محصورةٍ حتى انهُ كان يهب اوانيَ الذهب مملوءةً بالفضة واوانيَ الفضة مملوءةً بالذهب ونوافج المسك وقطع العنبر[7] وبلغ جملة المنفوق من بيت المال خمسةً وخمسين الف الف درهم وامر بزبيدة ان تجلي في درعٍ من الدرّ لم يقدر احدٌ على تقويمهِ بثمنٍ وغالى في تزيينها بالحلى حتى انها ما قدرت على المشي لكثرة ما كان عليها من الجوهر[8] وامر بان يتخذ الطباخون من الوان الطعام والحلوى ما لم يقدر احدٌ على احصائهِ فقيل ان الحطب الذي احرقوهُ حُمل اليهم على خمسمئة بغلٍ[9]. وهذا شيءٌ من الاسراف لم يسبق اليهِ اكاسرة الفرس ولا قياصرة الروم ولا صبية الامويين مع ما تقلّبوا فيهِ من الاموال الجسام

(١) الفخري ٢٣٠ (٢) الخميس ٢ * ٣٢١ (٣) وجدتُ في بعض الكتب ان المأمون اتخذ في قصورهِ ثلاثة آلاف وثمانمئة بساط منها الف واثنان مزركشة بالذهب واتخذ سبعمئة خصيٍّ منهم ثلاثمئة سود فان صحت الرواية فليس لذكر ترف الفرس والروم موضع في جانب العظيم من ترف العباسيين (٤) المسعودي ٢ * ٣٤٢ (٥) المستطرف ٢ * ٢٤١
(٦) العقد الفريد والسيوطي (٧) تزيين الاسواق ١١٧ (٨) الف ليلة وليلة ١ * ٨٤
(٩) المقدّمة ١٥١

ومن جمال دورِ ان زبيدة زوجهُ تصنع اعمالاً يتباهى بها الملوك . فمن ذلك انها صنعت بساطًا من الديباج على صورة كل حيوان من جميع الاجناس وصورة كل طائر من ذهب واعينها من ياقوت وجواهر[1] وانفقت عليهِ نحوًا من الف الف دينار واتخذت الآلة من الذهب المرصع بالجوهر وامرت بان يصنع لها الرفيع من الوشي حتى بلغ الثوب الذي اتُّخذ لها من الوشي خمسين الف دينار. واتخذت القباب من الفضة والابنوس والصندل وكلاليبها من الذهب الملبَّس بالوشي والديباج والسمور وانواع الحرير. واتخذت شمع العنبر وصنعت لها خفًا مرصعًا بالجوهر واتخذت الشاكرية من الخدم[2] يخلفون على الدواب في جهاتها ويذهبون في حوائجها ورسائلها وهذا من الاعمال التي تدوَّن في سير الملوك تعظيمًا لما يصير اليهم من النعمة ويتقلبون فيهِ من الطيّبات

ولا يُرى مثل هذا التَرَف في غير دور الخلافة الاَّ في قصور البرامكة الأَمجاد واليهم ينتهي جمال الملوك واشراقهم فاذا عزموا على الركوب جلس الناس لهم حتى يروهم اكثر ما يجلسون للخلفاء ولقد رأيت بعض صبيتهم بباب محول[3] من الجانب الغربي[4] في موكب عظيم وقد طرز في ملبسهِ وبين يديهِ الجند والفرسان والحفد والاعوان والرقيق والغلمان وهو واضعٌ طرفهُ على معرفة فرسهِ المجلَّل بالوشي والذهب والناس ينظرون اليهِ ويعجبون منهُ وهو لا يلتفت كبرًا وجلالةً. وكان الرشيد نفسهُ اذا حضر مجالسهم وهو بين الآنية المرصعة والموائد من الجزع اليماني والمطارح من الديباج المطرَّز[5] والجواري يرفلنَ بالوشي والحرير

(١) المستطرف ١ * ٩٨ (٢) المسعودي ٣ * ٤٠٢ (٣) اغاني ٦ * ٧٨
(٤) المسعوديُّ ٣ * ٣٢٧ (٥) الاتليديُّ

ويحرقن الندّ والصندل والعود ويغنّينَ له على ضرب العود ويستقبلنه بالروائح التي لا يدري ما هي لطيبها خُيّل له أنّه في الجنّة بين الجمال والجوهر والطيب

وقد انتهى ترف شبابهم الى الغاية التي لا وراء بعدها من الاسراف رأيتهم يتخذون الابر لجوارتهم من الذهب ويصيغون المسامير التي يدقونها في مجالسهم لتعليق المناديل[1] من الذهب ايضاً ويتخذون موائدهم من العرعر والذهب منزّل فيها برسوم تحيّر الابصار والبصائر. ورأيت عند جعفر اعزّ الله ملكهُ دواةً من ذهب غطاؤها لؤلؤة سنيّة لا تقوّم بثمن . ووجدت مجالس الطرب عندهم أجلّ منها دور الرشيد واجمع لمعدّات اللهو لان لهم الغواني اللواتي ليس مثلهنّ في البلاد ولا سيّما فوز[2] وفريدة[3] ومنّة[4] وهنّ اشهر النساء غناء واحسنهنّ ضرباً بعود . وقد كان الغناء قبل البرامكة لا يُعلّم في دور الامراء الاّ للصفر والسود[5] فأحبوا ان يعلموهُ للقياني الحسان[6] ليزيد جمال صورتهنّ في حسن الغناء وتأثيره في النفوس فجمعوا[7] في منازلهم اكثر من مئة جارية يغنّينَ احسن الغناء . واذا زارهم الرشيد في بعض ايام لهوه اخرجوهنّ له الى البستان فاصطففنَ امامهُ مثل العساكر على صفين وغنينَ وضربنَ على العيدان ونقرنَ على الدفوف الى ان طلع الى مقاصير القصر فأحسبهُ في نفسي يحسدهم على اتساع نعمتهم ولكن ليس له الاّ ان يصبر على ذلك لانهم يؤيّدون دولتهُ ويرفعون منار الاسلام باستفحال ملكهم الى هذه الغاية

(١) ابن خلكان ١ * ٢١٤ (٢) اغاني ١٥ * ١٤١ (٣) اغاني ٣ * ١٨٣
(٤) اغاني ٤ * ٨٧ (٥) اغاني ٥ * ٩ (٦) اغاني ٥ * ١٤ و ١٧ (٧) اغاني ١٥ * ١٤١